بين إنكارين
فى قسمة غنائم حنين
للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

راق بعض إخواننا من أفاضل العلماء ما ذكرته فى إنكار ذى الخويصرة التميمى على النبى صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حنين[1] وأعجبه إرجاعى ذلك الإنكار إلى جمود ذى الخويصرة، وأنه يرى الوقوف فى الدين عند حدود القواعد، ولا يرى الأخذ فى ذلك بشىء من التساهل، وقد أداه هذا التنطع فى الدين إلى ذلك الإنكار الفاضح، وكان من النبى صلى الله عليه وسلم أن أعرض عنه فى ازدراء، وتركه فى ذلك الجهل الفاضح الذى لا يقبل الدواء، لأنه من الجهل المركب وهو شر أنواع الجهل، وصاحبه لا يفيد فيه العلاج أصلاً

وقد كان هناك إنكار آخر من الأنصار على قسمة غنائم حنين، وهو أدل على ما راق ذلك العالم الفاضل من أن الجمود على القواعد ليس من الدين فى شىء، وأنه لا قيمة لمنطق الألفاظ إذا اعترضه منطق الحوادث، لأن منطق الألفاظ يسهل تذليله لمنطق الحوادث بشىء من التصرف فى دلالتها، أما منطق الحوادث فصريح لا يقبل تأويلاً، ويأبى إلا أن يخضع له منطق الألفاظ.

وكان إنكار الأنصار على النبى صلى الله عليه وسلم أنه أعطى قومه من غنائم حنين ما أعطى ولم يعطهم، فوجدوا فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة – وهى القول الردئ – وقال بعضهم: إن هذا لهو العجب: يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! وفى رواية أخرى: إن هذا لعجب، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش، وإن غنائمنا ترد عليهم. وقال آخرون منهم: إذا كانت شديدة ندعى إليها، ويعطى الغنيمة غيرنا!

وقال حسان بن ثابت فى ذلك:

دع عنك شمّاء إذ كانت مودتها
نزراً وشرُّ وصال الواصل النزرُ
وائت الرسول فقل يا خير مُؤتمن
للمؤمنين إذا ما عُدِّدَ البشرُ
علام تدعى سُليمٌ وهى نازحةٌ
قدّامَ قوم هم آووا وهم نصروا
سماهمُ الله أنصاراً بنصرهمُ
دينَ الهدى وعوان الحرب تستعر
نجالد الناس لا نُبقى على أحد
ولا نضيّع ما توحى به السوَر
كما رددنا ببدر دون ما طلبوا
أهلَ النفاق وفينا ينزل الظفرُ
ونحن جندك يوم النَّعف[1] من أُحُد
إذ حزّبت بطراً أحزابها مُضرُ
فما ونينا وما خِمْنا وما خبروا
منا عثاراً وكل الناس قد عثروا

وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هذا الإنكار من أصحابه الأنصار، فلم يهمه أمر الألفاظ التى بلغته، ولم يبحث عن دلالتها على الشك فى رسالته أو عدم دلالتها عليه، ولم ينظر إلى ما تقضى به قاعدة الإنكار عليه من كفر أو نفاق، بل نسى ذلك كله ولم يعبأ به ولم ينظر إلا إلى ماضى الأنصار الحافل بالجهاد فى نصر الدين، ولم يذكر إلا أنهم آووه وآثروه وأصحابه على أنفسهم حين هاجروا إليهم، وبذلوا دماءهم وأموالهم حتى تم له ما تم من النصر على قومه وغيرهم، وليس من حسن السياسة أن يؤخذ الصاحب بزلة لا تذكر بجانب حسناته، وليس من الإنصاف أن يحاسب على الألفاظ إذا كانت أفعاله توجب الإغضاء عنها، وتدل على أنه لا يقصد ما فيها من دلالة على كفر أو نفاق. ولا شك أن من لا يراعى مثل هذا فى سياسة أصحابه تختل عليه أموره، وتضطرب أحواله، وينظر فلا يجد له صاحباً ولا نصيراً

(١) انظر العدد ٤١٧ من مجلة الرسالة

(١) أسفل الجبل

وهكذا آثر النبي صلى الله عليه وسلم ما يقضي به حسن السياسة من أخذ أنصاره باللين ، والتغافل عما صدر عنهم من تلك القالة . وقد دخل عليه سعد بن عبادة الأنصاري يبلغه شكوى قومه ، فقال له : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت : قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . فخرج سعد فجمع الأنصار له ، فلما حضروا قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً

فله هذه السياسة البارعة التي يتواضع فيها النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار هذا التواضع ، ويقوم فيهم كأنه فرد منهم ، فيوازن بين ما قدمه لهم من حسنات ، وما قدموه له من حسنات ، ويجمل ما قدموه له مثل ما قدمه لهم أو أرجح منه ، ثم يذكرهم عظيم حظهم إذا عادوا به في رحالهم ، وعاد الناس بما أخذوه من تلك الغنائم ، فيقتلع من نفوسهم كل أثر لتلك الموجدة ، ويجعلهم يبكون ندماً عليها أو فرحاً بعظيم حظهم

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمد على قواعد الدين ورسومه كما نجمد اليوم ، لم يأخذ الأنصار بتلك السياسة البارعة بل وقف يؤنبهم على تلك القالة ، ويذكر أن الإصرار عليها كفر ونفاق في الدين ، وأنهم إن لم يتوبوا منها حل عليهم عذاب الله وحبط ما قدموه من حسنات في الإسلام

ولكن مثل هذا لا يشفي النفوس العاتبة ، ولا ينال به رضا الأصحاب عند عتابهم ، وإنما يكسب رضاهم بالإغضاء عن زلاتهم ، وأخذهم بالرغبة واللين ، لا بالرهبة والوعيد . وها نحن أولاء اليوم نأخذ الناس في ديننا بالتشديد والوعيد ، ولا نأخذهم بالرغبة وحسن السياسة ، ونقف جامدين أمام النصوص وألفاظها ، وننال في الأخذ بالقواعد غير متأثرين بالظروف التي تحيط بها . ولا شك أن هذه مغالاة في الغيرة على الدين تضر ولا تنفع ، وتنفر الناس منه ولا تجذبهم إليه ، وقد خسرنا بها كثيراً ممن كان يمكن أخذهم بالرغبة وحسن السياسة . ومن الواجب أن نقلع عن هذا الجمود ، وأن نأخذ الناس إذا زلوا بتلك السياسة التي سنها النبي صلى الله عليه وسلم

عبد المتعال الصعيدي

(١) اللعاعة بقلة حمراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

إعلان

تعلن وزارة الزراعة فقد دفتر القسائم ٣٣ ع . ح الأبيض من نمرة ٨٠٧٧٢١ إلى نمرة ٨٠٧٧٤٠ مجموعة رقم ٢٩ وقد اعتبرت الوزارة هذا الدفتر لاغيا وكل من حاول استعماله يعرض نفسه للمحاكمة الجنائية . ٨٤٣١